النيل والمصريون

د. عفاف عمر الإتربى•

ملخص

قال تعالى " وجعلنا من الماء كل شئ حى" صدق الله العظيم.

لقد من الله على مصر بنهر النيل، ذلك النهر الخالد الذى كان له الدور الرئيسى فى قيام حضارة من أعرق الحضارات فى العالم وأعظمها على مر التاريخ.

فمنذ فجر التاريخ وجد الإنسان المصرى نفسه يعيش على أرض يشقها نهر عظيم يوفر له سبل الحياة على ضفتيه، ولكنه يثور فى بعض الأحيان ويفيض ليغرق الأراضى ويوقع الخوف فى نفوسهم، مما جعلهم يتحدوا ويتعلموا روح الفريق لدرء خطر الفيضان، وكانوا قد تعلموا الزراعة، وبدأ التفكير الإيجابى بوضع التقويم الذى يهتدوا به فى الزراعة، وهو أكثر التقاويم دقة حتى الآن.

وعرف المصريون الصناعة من خلال الزراعة، فقد صنعوا الحبال والمكيال والنول والمكوك والفأس والمنجل والشادوف والمغزل والكتان، وصنعوا أوراق البردى ليسجلوا عليها تاريخهم وحضارتهم، وعرفوا الحبر والأقلام بعد أن أخترعوا الكتابة، وبدأت حضارة وادى النيل بإبداعات المصرى الفنية، والتى عبرت عن أحاسيس جياشة بكل ما يحيط به وعن النهر الفياض الذى يجرى شمالا وجنوبا، ولقد كان للفن دورا بارزا فى حضارة مصر ونهضتها، وتطور هذا الفن تبعا لتغير معايير التحولات للمفاهيم الإنسانية، وكذلك لتغير الإتجاهات الفكرية التى لا تشكل أساسا للفن وحده.. بل للمجتمع بأسره، وبالتالى فإن فنون مصر التشكيلية الجميلة جاءت محكومة بظروفها الإجتماعية والسياسية والفكرية والإقتصادية، ولقد كان التفاعل رائعا بين المصرى وبيئته التى حباه الله بها من طبيعة فريدة.

فأرضها منبسطة وشمسها ساطعة وسماءها صافية، إلى جانب جفاف جوها الذى كان له أكبر الأثر فى حفظ تراثها لآلاف السنين بعيدا عن التحلل والتآكل، فتلك الطبيعة التى هيأت أسباب الحضارة وتجاوب الأنسان معها، وأستفاد من مواردها، فاستأنس الحيوان ونقب فى الأرض يستخرج من معادنها، وينتفع بجبالها فينحت صخورها، واستخرج الطمى من النهر ليشكل به أجمل الفنون،فكان نتاج هذا التفاعل بين البيئة والإنسان ذلك التراث التاريخى الخالد.

• مديرعام ترميم آثار المتاحف (الأسبق) - المجلس الأعلى للآثار - مصر

وبما أن النيل واهب الحياة للأرض المصرية، فقد كان له تأثيرا قويا على الفكر العقائدى للمصريين، لكونه السبب الفعال فى صيانة أرواحهم من مهالك القحط والجدب والذى وصل بهم لدرجة تقديسه، وعبروا عنه فى فنونهم على شكل آلهة تمثل للدلالة على الخصب والنماء، والثروة التى جلبتها خيرات النهر، فصارت مكانة النيل راسخة فى النفوس كمعبود يؤدون إليه فرائض العبادة والإجلال، ولقد كان لطبيعة مصر التى ذكرناها أثر كبير فى وداعة طباع المصريين وعمق تفكيرهم فيما وراء الطبيعة، وأن هناك قوى أكبر من الإنسان تنظم هذا الكون الفسيح بكل ما فيه من أشياء ملموسة وأشياء تتحكم فى حياته بدون أن يراها من تقلبات الطبيعة، وبزوغ الشمس وأفولها وفيضان النهرفى أوقات ثم جفافه فى أوقات أخرى، مما جعله يفكر وتتجلى عبقريته فى التعبير عن كل ما حوله والأبتكار فى الأستفادة من كل ما حباه الله به فأنشأوا جهازا فنيا هندسيا للمياه لخدمة آلاف الزراع، وهذا بدوره استدعى إقامة جهاز أمنى – شرطة – ثم جهاز مالى ثم جهاز عسكرى لحماية البلاد من أعداء الخارج.

وعلى هذا النحو تكونت أول حكومة فى التاريخ، ولقد برع المصرى فى العلوم والهندسة والطب والفلك والعمارة، بل إن طبيعه بلاده الجميلة أضفت عليه إحساسا راقيا بكل الفنون فكما برع فى كل العلوم التى رفعت حضارته لعنان السماء فقد ابتكر وبرع أيضا فى جميع الرياضات البدنيه التى مارسها الإنسان والتى ظلت حتى الآن يمارسها كل شعوب الأرض نقلا عنه.

وأقام المصرى الحفلات فى مناسبات عدة مارس فيها الرقص والغناء وأحتفل بالأعياد سواء فى المنازل أو الطبيعة أو المراكب التى تسير فى النيل مزدانة بكل ما هو جميل من زهور وطيور.ولم ينغلق المصريون على أنفسهم بل تبادلوا التجارة مع كثير من البلدان الأخرى.

وقد عبر الفنان وسجل كل دقائق حياته وما تم ذكره آنفا بكل أنواع الفنون التشكيلية من تماثيل ونحت غائر وبارز وتصوير وقد خص النيل بالتعبير عنه وعن تأثيره فى معظم مجالات حياتهم وفى رموز كثيرة تدل على مكانته السامية عندهم، وترك المصرى لنا فنونا لم ترق إليها حضارة أخرى.

ولقد ارتقت الحياة فى جميع أوجهها حتى أن السيدة المصرية أشتهرت بأناقتها ورشاقتها وكانت أول سيدة تعرفت على أسرار الجمال فأهتمت بزينتها وتسريحات شعرها التى قلدها الأوربيون لسنوات طويلة.

ولكن للأسف ولعقود طويلة ماضية تم إهمال النيل ومعاملته بصورة مزرية وجاهلة وحتى الحكومات لم تهتم بالعلاقات بين مصر والدول الأفريقية كالماضى وخاصا دول مصب النهر وباتت حصة مصر فى خطر إذا لم يتدارك المسئولين عن هذا الموضوع بجدية أكثر.

The Nile and the Egyptians

God says in the Holy Quran: "and (We) made from water every living thing" (The Prophets: 30).

God granted Egypt with the River Nile, that eternal river that played the main role in raising the greatest and most majestic civilization in history.

Since the dawn of history, the Egyptians found themselves living on a land penetrated by a great river that provided them with the ways of life on its banks. The River revolted sometimes and floods to drawn the lands and causing fear to their souls, a matter that made them challenge and acquire the team spirit to ward off the dangers of the flood. It made them learn agriculture and think positively by putting a very punctual calendar to help them in agriculture. A calendar that is considered the most accurate to the time being.

The Egyptians knew industry through agriculture, the manufactured ropes, bushels, looms, shuttles, axes, sickles, sweeps, spindles and flax. They manufactured papyrus to document their history and civilization; they knew ink and pencils after inventing writing. The civilization of the Nile Valley started with the artistic creations of the Egyptian that represented his high sensitivity towards the surrounding and the River that runs north and south. Art played an important role in the Egyptian civilization and it developed to cope with the change in the human standards. It also changed to adapt the changes in the ways of thinking that not only form a basis for art alone but to the whole society as well. Therefore, the Egyptian fine art was influenced by the social, political, intellectual and economical circumstances. The interaction between the Egyptian and his God given nature was great.

Egypt possessed a plain land, shining sun, clear sky besides a dry weather that played a main role in preserving its heritage for thousands of years from disintegration and decay. This nature paved the way for this great civilization and the Egyptians used its resources; he domesticated animals, explored the land in search of minerals, cut the rocks from its mountains and extracted clay from the river to form the most beautiful artifacts. The outcome of this interaction between man and nature was this immortal cultural heritage.

Since the Nile has given life to the land of Egypt, it had a great influence on the Egyptians' ideological thought because it was the only means to save their lives from the perils of drought and famine to an extent that made them sanctify it. The Nile was represented in art in the form of fertility, growth, and wealth god.

The status of the Nile became stable in the souls of the Egyptians as a worshipped god. The nature of Egypt which we previously mentioned created the calm temper of the Egyptians and deepened their metaphysical thought. They knew that there is a power greater than man that organizes this huge universe with its physical objects and other elements that control man's life without being seen like the vagaries of nature, sunrise, and eclipse, the flood during particular times and drought during others. Matters that urged him to think, and his genius to manifest in expressing his surroundings and innovation of new methods to use all the God given bounties. He established a architectural and technical apparatus for water to help peasants then a security apparatus (police) then a financial apparatus and a military one to help the country from foreign enemies.

In this way, the first government in history is formed. The Egyptian mastered science, architecture, medicine and astronomy, the beautiful nature of its country gave him an elevated sense in all types of art. He mastered all types of science that raised his civilization to the sky; he also created and developed many sports that are being practiced till today by many people around the globe.

The Egyptian celebrated many occasions and expressed his celebration through dancing and singing in his house, in nature or on boats floating in the Nile and decorated with flowers and birds.

The Egyptian artist represented and documented the details of his life through all types of art like sculpturing, drawing and carving specifying the Nile with many symbols that represent its great status to the Egyptians leaving us masterpieces that no other civilization possessed.

النيل والمصريون

مقدمة

قال تعالى " وجعلنا من الماء كل شئ حى " صدق الله العظيم.

ولقد أنعم الله على مصر بنهر النيل، ذلك النهر العظيم الذى استطاع الإنسان المصرى منذ قديم الزمان أن يعمل عقله وإحساسه فى كيفية إستخدام هذه الهبة التى وهبها الله له (النيل) فى تحسين وتطوير حياته ووطنه.

«وقبل أن يأتى النيل الحديث إلى مصر، آخر هذه الأنهار منذ حوالى ١٠٠٠٠ سنة مضت، كانت أنهار الأربعمائة الف سنة التى سبقت وصول النيل الحديث، متقلبة يصعب التنبؤ بأحوالها، فعندما كانت هذه الأنهار متصلة بأفريقيا كانت يأتيها الفيضان عاليا فى الصيف، وتكاد مياهها أن تجف فى الشتاء، كما أن الأنهار التى أنقطع اتصالها بأفريقيا كانت تأتيها المياه من السيول دون إنتظام، وبإندفاع مفاجئ عقب انهمار الماء من السحاب، فكان العيش فى ظل هذه الأنهار القديمة صعباً، فلا عجب أن فضّل الإنسان العيش فى الصحراء التى وجدها أكثر ملاءمة للمعيشة من وادى النيل، خاصة خلال الفترات المطيرة التى أدى تساقط الأمطار فيها إلى ملء خزانات المياه الأرضية فيها ورفع منسوبها، مما جعل الكثير من مناطقها ذا مصدر ثابت للمياه، وليس عجيبا لذلك أن يكون التاريخ قد بدأ فى الصحراء ففيها بدأت الزراعة وعملية استئناس الحيوان قبل ظهورهما فى وادى النيل بعدة آلاف من السنين.

.... وعلى الرغم من صعوبة العيش فى وادى النيل فى هذه العصور القديمة، إلا أن بعض الناس عاشوا حول جوانبه، وتوجد بعض أقدم الأدوات الحجرية التى صنعها الإنسان فى رواسب النهر،التى تكونت خلال العصر الحجرى القديم المبكر، والعصر الحجرى القديم المتوسط، وتوجد بالصحراء بعض بقايا الحيوانات التى كان إنسان هاتين الحقبتين يعيش على صيدها. ويبدو أنه عندما حل الجفاف بالصحراء، نزلت وادى النيل هذه المجموعات المختلفة، واستقرت كل واحدة منها فى منطقة، خاصة بالنوبة والصعيد. وعندما وصلت هذه المجموعات إلى وادى النيل، لم يكن النهر جزل العطاء، فقد كان موسميا تصله أمطار المرتفعات الأثيوبية فى دفعات كبيرة ومفاجئة خلال فصل الصيف، كما لم تكن تصله المياه فى فصل الشتاء فينكمش وقتها إلى برك صغيرة ومتناثرة»[١].

[١] - د/ محمد حسن عبد الله – مقالة بعنوان "هردوت يقرأ النيل" مجلة الثقافة الجديدة – الهيئة العامة لقصور الثقافة – سبتمبر ٢٠١٣- العدد ٢٧٦- ص ١٤.

وظلت الظروف المناخية صعبة ومتقلبة لآلاف السنين «فكان العيش فى الوادى محفوفاً بالصراعات،واحتاج إلى قدرات واستحداث وسائل وتوظيف تجارب، هى التى جعلت الحياة (الاجتماعية) ممكنة فى تلك العهود السحيقة»[٢].

أما عن مقولة هردوت " مصر هبة النيل" فهى ليست بالحقيقة الملموسة، بل ان مصر هبة المصريين، فإن الدلتا أكثر من غيرها تدل على ذلك «لأن التحدى وفعل الإرادة كان فى ترويضها، وتهيئة أرضها للزراعة، وخلق ملاءمة بينها وبين أفرع النهر- الطبيعية والصناعية – كان أشد عسراً وجهدا، وأدل على قوة الإرتباط بالارض، وتذليلها لحياة قابلة للترقى، وهذا لا يتحقق إلا عن طريق الزراعة، التى تستلزم إزالة الأحراش والغابات، وتحجيم الحياة البرِّية السائدة فيها»[٣].

ونهر النيل كان وسيظل مصدرا لحضارات مصر المختلفة على مر التاريخ، فالنهر يمر من أول منابعه وحتى مصبه بدول كثيرة، باعثا الحياة فى العديد من الأجناس المختلفة، ولكنهم لم يصنعوا حضارة تضاهى حضارة المصريين.

«فهذا النهر الذى أوجد أهم حضارة فى التاريخ، أقتضى من المصريين تعلم الهندسة لترويضة، ولحسم المشاكل التى تنجم عن فيضانه، واقتضى منهم التعاون لتقرير جريانه بالزيادة أو النقصان،كما أقتضى العمل على صد أضرار الفيضان والانتفاع بمائه»[٤].

ويقول د/ هرست، لو أحصى الناس الذين ترتبط مصالحهم بأنهار الدنيا ربما حظى النيل بالنصيب الأوفر، فلولا هذا النهر لكانت الأوطان صحراء جرداء، ولذلك أولاه الجغرافيون عناية فائقة بسبب طوله، واختلافه عن سائر الأنهار الكبرى بتدفقه من الجنوب إلى الشمال، وتوغله فى أقطار تباين فيها أنواع المناخ، وتتجه إليه أنظار السائحين الذين يستهويهم النهر، كما يجذب علماء الآثار والمؤرخين، ويقول "هرست" مهما يكن من أمر هذا النهر.. فهو مازال مفتقراً إلى المؤلفات الحديثة، لإشباع الرغبة المعرفية لدى المفكرين والمحللين السياسيين.

والنيل هو المُشَكل لسياسة وأقتصاد مصر منذ قديم الأزل، فالسياسة مرتبطة بالاقتصاد، فكلما كانت السياسات حكيمة وقوية.. كان الاقتصاد مزدهرا، وقد بدأ التفكير فى أحوال وتطورات النيل وفيضاناته منذ أن حل

---

[٢] - د/ محمد حسن عبد الله – المرجع السابق ص ١٥.

[٣] -د/ محمد حسن عبد الله – المرجع السابق – ص ١٥.

[٤] - د/ هرست : مدير عام مصلحة المساحة بمصر ١٩٦٠ – مجلة الإعلام المائى العدد السابع والعشرون ١٩٩٨، وزارة الأشغال والموارد المائية (بتلخيص).

بـه سـكان مصـر القـدامى، منـذ أكثـر مـن عشـرة الآف سـنه، فإنسـان العصـر الحجـرى ومـا قبـل الأسـرات، لـم يكـن يعـرف عـن مجـرى النيـل وأحوالـه ومنابعـه شـيئا يـذكر، فقـد سـكن أسـطح الهضـاب المحيطـة بـالوادى، خاصـة الممتـد منهـا جهـة الغـرب وقـت أن كـان المنـاخ أكثـر رطوبـة علـى شـمال أفريقيـا، وقـد تلـى ذلـك لجوئـه إلـى مجـرى النهـر وحولـه عنـدما بـدأت بـوادى الجفـاف تحـل بهـم، ومـن ثـم بـدأ السـكان الجـدد يفكـرون فيمـا يجـرى أمـام أعينـهم مـن ميـاه عذبـة تبعـث الحيـاة فـى كـل كـائن حـى، فبحثـوا فـى أسـراره وتتبعـوه إلـى منابعـه، واتصـلوا بـأقوام أخـرى تسـكن حولـه وجنـوب الشـلال والتـى كانـت تعتـدى علـى حـدود مصـر أحيانـا، ممـا دفعهـم إلـى اتخـاذ التـدابير اللازمـة لـردِّهم، حتـى جـاء الفرعـون زوسـر فرعـون مصـر فأرسـل البعثـات الحربيـة لإخضـاع وضـم تلـك الـبلاد، وأتـاح لسـكان مصـر القـدامى معرفـة أكثـر بـالأجزاء الجنوبيـة، ومـن هنـا قامـت علاقـات تجاريـة متبادلـه، وكمـا حفـزت الحمـلات العسـكرية الحكـام المصـريين علـى تكـوين جـيش قـوى، قـادر علـى حمايـة حـدود مصـر، ورد أى عدوان عنها»[٥].

«واسـتطاع جـيش مصـر أن يخضـع بعـض الـبلاد التـى فـى الجنـوب مثـل (صورة ١)

١. بلاد كوش.

٢. بـلاد "يـام" وتقـع غـرب النيـل، وإلـى الجنـوب أكثـر بإتجـاه بحـر الغزال حيث بلاد الزنوج والأقزام.

٣. بـلاد "بنـت" أطلـق المصـريون القـدماء هـذا الاسـم علـى الـبلاد الواقعـة علـى السـاحل الجنـوبى للبحـر الأحمـر، أو فيمـا يعـرف اليـوم بـبلاد الحبشة والصومال وأريتريا ويضيف البعض اليمن إلى ذلك»[٦].

«وكانـت لميـاه النيـل مـع القنـوات والتـرع والآبـار والبحيـرات، أهميـة فى الغسيل والتطهير والطقوس»[٧].

ولتقـديس المصـرى القـديم للنيـل فقـد سـمى (حعبـى – أو كمـا يطلـق شـيوعاً حـابى – كـرب للنيـل وعـرف بدايـة لـدى المصـريين علـى أنـه فيضـان النيـل، والـذى يفـيض سـنوياً جالباًالخصـوبة والخيـرات، بغمـر الأراضـى بالميـاه،

[٥]- د/ محمد عوض محمد – نهر النيل – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة ١٩٦٢ص ٦

[٦] - د/ عبـد العزيـز عبـد اللطيـف – اسـتاذ الجغرافيـا الطبيعيـة- كليـة الاداب – جامعـة عـين شمس –كتاب جغرافية وادى النيل (بتلخيص) – دار الحرية للطباعة.

[7] - htt://www.crownof Egypt. Com/2011/ blog- post.htm.(بتصرف)

ولكن قد يتعدى ذلك فى كونه تجسيد للقوة المقدسة للنهر نفسه، والنيل يمثل مصدر الحياة الأولى لدى المصرى القديم[٨] .

لذا كان تأثيره قويا على الفكر العقائدى له، وكان له احتراما عظيما لكونه السبب الفعال فى صيانة أرواحهم من مهالك القحط والجدب، وانتشار الفاقة.. واستحكام الضيق إذ أن عوام الناس وخاصتهم مقبلين على الزراعة والاعتناء بها أكثر من أى شئ، وكانوا يقدّمون له بعض الاعتبار كالعبادة وسموه كما ذكرنا " حعبى Hapy" أى الإله المقدس، ويلقبونه إله الخصب الذى يعطى الحياة للأراضين[٩] (صورة ٢).

ولقد رتب المصريون الأعياد والمواسم الشهيرة فى الأحتفالات السنوية ترحيبا بوفاء النيل، وشكرا لما يغدقه على الأرض من نعيم الخصوبة والرغد.

ولقد علم النيل المصريون الكفاح واليقظة والصبر، وهو الذى علمهم الوفاء، فما يكاد موسمه يطلع على الدنيا حتى يقبل عليهم ميمونا فياضا بالخير والبركة فيفرحون بقدومه، ويقدمون له القرابين ويؤلفون له الأناشيد لتمجيده، ومن الأناشيد التى قالها المصرى القديم فى النيل :

"هو الذى يذهب فى وقته ويأتى فى وقته، الذى يحُضر المأكل والمؤن، وهو الذى يأتى بين الأفراح، المحبوب جدا.. رب الماء الذى يجلب الخضرة، ويتفانى الناس فى خدمته وتحترمه الآلهه. هو إله صغير خلقه رع من أحسن عناصره، كل من يرى النيل فى الفيضان تدب الرعشة فى أوصاله. أما الحقول فهى تضحك، وأما الشواطئ فتكسوها الخضرة، وتتساقط هدايا الإله، وتعلو الفرحة فى وجوه البشر، أما قلوب الآلهة فتخفق من السعادة"[١٠].

"والنيل هو الذى علم المصريين الحساب والنظام، والنظر فى الأفلاك بالسماء والبحث فى علوم الفلك، ولم تكن تلك المراصد التى أقامها المصريون فى هليوبوليس قبل الصبح فى تاريخهم، إلا من أجل ارتقاب نجم الشعرى اليمانية، الذى كان يبدوا لهم واضحاً عند مطلع الفيضان فى مجرى النهر كل عام"[١١].

وهذا النهر الذى فرض على المصريين الحاجة لبناء السفن، فكان تقدمهم فى فن الملاحة سريعا" (صورة ٣) إذ لم يكن إلا الطريق النهرى، فقد حملهم

---

[٨] - د/ عبد الحليم نور الدين – الديانة المصرية القديمة – ج ١- المعبودات – الطبعة الأولى – القاهرة ٢٠٠٩ ص ١٨٦.

[9] - Maspero. G the Daen of Civilization. London. S.P.C.K.1897- p 37.

[١٠] - أدولف ارمان – ديانة مصر القديمة – نشأتها وتطورها ونهايتها فى أربعة آلاف سنه.

[١١] - أحمد بدوى- فى موكب الشمس، القاهرة – مصر- مطبعة لجنة التأليف والترجمة ١٩٥٠ – ص ٥٧.

ذلك على استعمال المراكب بصورة متواصلة للعبور من ضفة لأخرى، ومن بلد لبلد، ويمكن القول أيضاً أن الديانة تأثرت بهذه الصورة الطبيعية، فقد كان المصريون يعتقدون أن الشمس تعبر السماء فى زورق"[١٢].

ذلك أنها تشرق كل صباح لتوجد الحياة "وتسير فى زورق لتنير عالم الأحياء وتغيب فى المساء، لتنير عالم الأموات فى رحلتها الليلية فى العالم السفلى، ومنه صار شروق الشمس، يعنى ولادة الحياة وتجددها، وغروبها واختفاؤها يعنى الموت، لكنه معقوب بولادة جديدة، تنهض ثانية لتبدأ رحلتها عبر السموات فى زورق الشمس، وهكذا إلى مالانهاية"[١٣].

فالماء إذن كانت له أهميته فى الحضارة المصرية القديمة، والماء التقدمة الفضلى التى تقدم للأموات، وهذا يجعلهم يقدرون الأرض الزراعية، فكانوا يبنون على الصحراء ليوفروا الأرض الزراعية الثمينة، وحتى الجبانات التى نستمد منها الكثير من معلوماتنا، فقد حفرت فى مناطق بعيدة، لاتصل إليها الرطوبة التى تتسرب فى التربة على جانبى النهر تسربا عميقا.

"فالرمل الجاف الحار يحافظ على أجساد الأموات، ويعمل على تجفيفها.. ويمنع عنها التحلل الطبيعى، وهذا هو الذى قاد فى النهاية إلى فكرة التحنيط"[١٤].

كان فيضان النيل السنوى عاملا مهماً ومساعداً للمصريين القدماء على إنماء إدراكهم نموا هندسياً، فلكى يكون الفيضان نافعا، يجب أن يحسن توزيع مياهه وأن يستوجب بناء سدود وأقنية وحواجز ليضمن وصول الماء إلى كل الأراضى الزراعية، ثم تلاها تقسيم الأراضى الزراعية هندسياً والهندسة كما يدل اسمها (Geometry) أى قياس الأرض، ولعل أول ما خُطَّ فى هذا العلم الهندسى، كانت تلك الشقوق المستقيمة المتوازية للزراعة، ثم تلك المربعات التى تقسم الحقول أقساما، ثم تلك الخطوط الفاصلة بين أرض وأرض"[١٥].

ولقد أنعم الله على مصر بجانب نعمة النيل بمناخ معتدل، فساهم ذلك فى نشاطات بشرية فى مجالات عديدة مثل :

١. استئناس الحيوان.
٢. اكتشاف الزراعة.

---

[١٢] - جان فركوتر - مصر القديمة- ترجمة عبد الغنى شال، القاهرة- دار المنشورات العربية، د.ت، ص ٢١.

[13] - Macquitty,Wiliam. Abu Simbel. Newyork. Gp.Putuam's. sons,1956, p18.

[14] - Wiliam.Op.Cit. p18 – Macquitty.

[١٥] - د/ ثروت عكاشة "الفن المصرى – ج ١، القاهرة – دار المعارف – ١٩٧١ – ص ٥٩٨.

٣. الاستقرار السكنى.
٤. قيام بعض الصناعات مثل المراكب من سيقان البردى والمراكب الخشبية التى سهلت حركة التبادل التجارى عبر النيل، كما برع المصرى القديم فى صناعات أخرى مثل الأوانى الحجرية وأدوات الصيد وصناعة الفخار من طمى النيل (صورة ٤) وعمل الحصر والسلال، وصناعة الحبال، والغزل من الكتان، وصناعة الزيتون، والنبيذ من العنب، وأدوات الزينة، والأهتمام بدفن الموتى والتحنيط جعلهم يستوردون شجر البخور من بلاد بنت"[١٦] وأخشاب البناء من لبنان ويستخرجون النحاس من سيناء.

وبعد معاناة مئات السنين، وبعد استقرار المعيشة على ضفتى النهر واكتشاف السكان للزراعة وكما تم ذكره من بعض الصناعات التى أخذوا فى تطويرها، واستحداث غيرها من استغلال لكل ما يحيط بهم من موارد طبيعية من طمى.. لنبات وأشجار.. واستخدموا أوراق البردى ليسجلوا عليها تاريخهم وحضارتهم وعرفوا الحبر والاقلام بعد أن اخترعوا الكتابة، ولقد أثر النيل بكل تقلباته، وبكل ما أعطى من خير فى وجدان المصرى القديم، فبدأ يعبّر بكل ما وهبه الله من فطرة جميلة، وإحساس ومشاعر فياضة عما يُحسّه تجاهه، وأخذ يرسمه بأشكال رمزية ويسجل كل ما يحتويه من أسماك ومخلوقات أخرى كفرس النهر والتماسيح، وما ينبت فيه من أزهار ونباتات مختلفة، وبإحساس فنان مرهف سجل كل ما تموج به الحياة اليومية من اختلافات وتوافُق للمزارعين أثناء ريهم لأراضيهم بالشادوف والطنبور، ونثرهم للبذور فى اراضيهم (صورة ٥) وحولهم دوابهم وطيور الحقول.. ثم فرحة الفلاح بالحصاد.. تركوا لنا سجلات كلها تنطق بالحياة والفن الجميل.

وقد ارتقت الحياة فى وادى النيل، وارتقت معها مدارك المصرى فبرع فى العلوم والهندسة والطب والفلك والعمارة، وقد استغل "كل ما حباه الله به فأنشأ جهازا فنيا هندسيا للمياه لخدمة آلاف الزراع، ووضعوا التقويم الذى يهتدون به فى الزراعةوقد تم وصفة - حتى الآن- بأنه أكثر التقاويم دقة، واستدعى ذلك إقامة جهاز أمنى - شرطة – ثم جهاز مالى، ثم جهاز عسكرى لحماية البلاد من أعداء الخارج، وعلى هذا تكونت أول حكومة فى التاريخ"[١٧].

---

[١٦] - د/ عبد العزيز صالح – حضارة مصر القديمة وآثارها – مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة ١٩٨٣ – ص ٥٩ – ٧٢ (بتلخيص).
[١٧] - نبيل زكى – جريدة الأخبار – الصفحة الأخيرة – الأحد ٣١ مارس ٢٠١٣.

وعرف المصرى القديم التعدين فاستخرج المعادن من باطن الأرض واستخدامها فى صنع آيات من الفنون والكنوز الرائعة ،كما أستخرج الأحجار بجميع أنواعها وصنع منها التماثيل والمنحوتات والتوابيت التى لم يستطيع أى فنان فى بقاع الأرض أن يضاهى فنه فى الدقة والجمال، بل إنه استخرج الأكاسيد وصنع منها الألوان التى مزجها ولون بها كل ما أبدعته أحاسيسه ويداه من مقابر ومعابد ولوحات جدارية سّجل فيها حياته اليومية كلها بما فيها من رقىّ أسرى، سواء وهو يعمل أو مع أسرته بما يجمعهم من مودة بينه وبين زوجته وحنوّه على أولاده ،بل رسم بكل دقة كيف كان المصرى القديم بعد جدِّه وكدّه فى العمل ،لا يبخل على أسرته بنزهات جميلة فنرى الزوج والزوجة فى قارب فى النيل ، سواء كان يصطاد الأسماك أو يلهو وحولهما أطفالهما يحملون الزهور وهم سعداء (صورة ٦) ، وكان المصريون يقيمون الحفلات والولائم الزاخرة بأنواع المأكولات الفاخرة والزهور التى تزين الموائد ،وكانوا فى حفلاتهم يمارسون الرقص والغناء واللهو البرئ (صورة ٧).

وعادة لا يحرمون أطفالهم من المشاركة فى تلك المتع التى تسعدهم وتعلى من مداركهم.. وتنمى فيهم الحياة الأجتماعية السليمة.

ونلاحظ عند مشاهدتنا للآثار المصرية سواء فى الرسم أو النحت أن أجسامهم تبدو ممشوقة ورشيقة رجالا ونساءاً وبرغم رشاقة أجسام الرجال أيضا إلا أنهم مفتولوا العضلات وتبدو عليهم علامات الصحة والنشاط ، فقد كانوا يمارسون كل أنواع الرياضات والتى أخذ عنها العالم بعد ذلك، حتى لو نظرنا للرياضات الأوليمبية سنجد أنها طبق الأصل من الرياضات المرسومة على حوائط المقابر والمعابد (صورة ٨).

وكان للنيل أثر كبير فى وداعة طباع المصريين ورقة مشاعرهم فتأثرت أحاسيسهم بما أغدقه النيل من خيرات ، فكثر الفنانون بجميع أطيافهم من شعراء لرسامين لنحاتين لموسيقيين ، وتوضح الرسوم المصرية القديمة إختراعهم لآلات موسيقية عديدة وموجود منها الكثير فى المتاحف المختلفة، وكما تم ذكره توضح الآثار استمتاع المصرى القديم بالموسيقى والرقص وكل أنواع الفنون، سواء فى الحفلات أو الطقوس الدينية فى المعابد.

وعلى مر التاريخ لم توجد حضارة أعطت المرأة وضعاً كوضع المرأة المصرية فقد " لعبت المرأة فى مصر القديمة دورا لم يكن يقل – أحيانا – عن الدور الذى قام به الرجل.

ولقد كان دور المرأة فى الحياة يتمثل فى أمرين، يتصل أحدهما بحياتها الخاصة فى المنزل، ويتصل ثانيهما بحياتها العامة فى المجتمع،

فالمرأة إلى جانب أنها أم وزوجة، فهى رفيقة الرجل فى رحلة الحياة، وساعده الأيمن فى بعض أعماله وتشاركة فى تربية الأول
وهناك أيضا مركز المرأة فى مجتمعها ومدى علاقتها بزوجها ونصيبها من الميراث، وما يتعلق بزواجها وما ذكره الحكماء عنها، إذ كثيرا ما أوصوا الأبناء بالأمهات خيرا، كما أوصوا الزوج بأن يحسن معاملة زوجته.
ومن خلال المناظر التى سجّلها المصريون القدماء على جدران مقابرهم تبدو الحياة العائلية، أقصى ما كان ينتظر لها من كمال
(صورة ٩) فالمرأة شريكة الرجل فى الحياة لها ما له وعليها ما عليه من حقوق وواجبات، وليس فيما صوره المصريون من نواحى حياتهم مايشير إلى هضم حقوقها.. أو الغض من قيمتها، وليس هناك ما يدعو للشك فى قيمة هذه الصور التى تشير إلى مركزها فى الحياة ومكانتها فى المجتمع، فهى إلى جانب زوجها فى جد الحياة ولهوها، وكانت تظهر أحيانا وقد حنت عليه وأنعطفت إليه وأنتشر من حولهما أولادهما، ولم يقتصر الأمر على الرسوم وحدها، بل وفى التماثيل أيضا، حيث كان الرجل يقف أو يجلس وبجانبه زوجته بالنسبه لأفراد الشعب والملوك على حد سواء"[١٨].

ولقد تقلدت المرأة مناصب متعددة وهامة أهمها منصب الملكة وهو دور " يضع الحضارة المصرية فى موقع الريادة بالنسبة لحضارات العالم القديم، وخصوصا إذا علمنا أنه فى الوقت الذى تفاخر به بلاد النهرين
(العراق) بالملكة سموراحات (سميراميس) وسوريا القديمة بالملكة زنوبيا " الزباء " وبلاد اليمن القديم بالملكة " بلقيس "، فإنه من حق مصر القديمة أن تفاخر بست ملكات حاكمات وبعدد كبير من الملكات أسهمن فى حكم الدولة وفى توجيه سياستها الداخلية والخارجية"[١٩].
ولكم كان رُقى المرأة المصرية فى رشاقتها وأناقتها واعتنائها بجمالها " فقد أهتمت المرأة الفرعونية بجمالها بشكل غير مسبوق فى التاريخ الإنسانى، لذلك كان لكل سيدة صندوق مخصص لمواد التجميل الخاصة بها تضع به كل ما يخصها من مساحيق الوجه والكحل وأمشاط الشعر ودبابيس الشعر، لذلك تفننت فى طرق تصفيف شعرها – الدراسة لخبير الآثار د/ عبد الرحيم ريحان وأشار إلى أن عقود الزواج كانت تنص على أن يدفع الزوج لزوجته راتبا شهريا خاصا لزينتها وتجميلها، وكشف الخبير أن الآثار بمنطقة الأسكندرية أثبتت أنه تم إنشاء دور لصناعة مساحيق التجميل بمدينة منف منذ بداية الدولة الحديثة.. وكان مكياج المرأة القديمة بسيطا ويبرز الملامح

[١٨] - د/ عبد الحليم نور الدين – دور المرأة فى المجتمع المصرى القديم – مطابع المجلس الأعلى للآثار – ١٩٩٥ – ص ٩- ١٠.
[١٩] - د/ عبد الحليم نور الدين – المرجع السابق – ص ١٧.

الجميلة لوجهها مثل مظهر الأميرة نفرت (صورة ١٠) وأستخدمت الزيوت فى الشعر مثل الملكة حتب وكان هناك استخدام الكحل الملاخيت والاسود وطلاء الأظافر وأستخراج العطور من زهور اللوتس والسوسن والدهون العطرية من دهن الثور والغزال والأوز، وأكد أن المصرى القديم لم يعرف الصابون بشكله الحالى، بل كان يستخدم أشياء مشابهة، وحظيت العطور بثبات رائحتها وصعوبة تركيباتها، وتحديد الشفاة، وتوصل القدماء للحفاظ على الجمال مثل تجاعيد الوجه"[٢٠].

ولم يكن المصرى القديم بارعا وسابقا لكل الحضارات كما ذُكر فى العلوم والفنون والآداب فقط بل كما ذكر نبيل زكى عن كتاب " مصر علمت العالم " لدكتور/ وسيم السيسى " إن تراث الديموقراطية فى مصر قديم قدم التاريخ، فالحضارة الأولى فى تاريخ البشرية كانت تدعو إلى مبدأ المساواة بين الناس، وكانت الوصية التى توجه إلى الوزراء وحكام الأقاليم عندما يتقلدون مناصبهم تقول " عليك بمعاملة الرجل الذى تعرفه، والرجل الغريب عنك على قدم المساواة. وعندما يأتى إليك صاحب شكوى من الشمال أو الجنوب أو من أى بقعة فى البلاد، فإن عليك أن تتأكد أن كل شئ يجرى وفق القانون، وحسب العُرف الجارى، فأعط كل ذى حق حقه، ولا تنسى أن تحكم بالعدل، لأن التحيز يُعد طغيانا"[٢١].

وكان المصرى القديم بتأمله لتقلبات النيل من فيضان فى وقت، لقرب جفاف فى وقت آخر وتأمله لبزوغ الشمس ثم غروبها وتأمله فى النجوم وتقلبات الطقس قد أحس بفطرته أن هناك قوى أعظم فى الكون هى التى تتحكم فى كل شئ فكان أول من آمن بالتوحيد، وتلك أناشيد وأبتهالات اخناتون تدل على ذلك ويكتب عنها نبيل زكى ومنها " أيها الواحد الأحد الذى ليس بجانبه شأن لأحد. هو الأب والأم، وليس له والد ولا ولد، خلقت السماء العاليه، وزينتها بالنجوم. أنت فوق مدارك عقول البشر.. يا من تملأ البلاد ببهائك وتغمرها بنورك،،.

ومن كتاب " مصر علمت العالم " يقول نبيل زكى " إن هذا البلد علّم العالم احترام القانون، فقد كان القانون المصرى فى عصرالفراعنة مثاليا فى قواعده، عادلا فى أحكامه، عاليا فى مراميه، نقيا فى مبادئه، صافيا فى مواده، وكان إسم المحكمة العليا هو " بيت العدل " وكان لدينا مفتشون يمرون على المحاكم لضمان سير العدالة، وكان المتخاصمون يترافعون عن أنفسهم، ولم تعرف الرسوم أو المحامون أو الاستئناف إلا فى العصر الرومانى، وكانت المرأة تتولى منصب القاضية، وأشهر القاضيات اسمها "

[٢٠] - جميل جورج – جريدة الأخبار – الصفحة الأخيرة – ٢٠ مارس ٢٠١٤.

[٢١] - نبيل زكى – جريدة الأخبار – صفحة أخيرة – المرجع السابق.

نفر إيحى " ومما يلفت النظر أن الميزان كان يتصدر قاعة كل محكمة فى مصر القديمة، وقد نقل العالم كله هذا الرمز عن مصر"[٢٢].

بل إن المصرى القديم قد آمن بالبعث بعد الموت وكان يخاف من الحساب بعد الموت فكان يعمل على إرضاء الآلهة بصالح الأعمال خوفا من عقاب الإله فى الآخرة، وقد سجّل كل ذلك فى أعماله الفنية والتى كان مبعثها إرضاء الآلهة. وبرغم كل هذا الموروث الحضارى للمصريين سكان وادى النيل الباعث للحياة فى كل مخلوقات الله، إلاّ أنه مر ببعض العصور انخفاض لفيضان نهر النيل، بحيث عمّت الفوضى العارمة والمجاعات التى كانت تضرب مصر من آن لآخر منذ استقر الأنسان المصرى على ضفافه بسبب أنخفاض منسوبة، وكادت تعصف بالحياة فيها.

ولكن الله عندما يرسل الفيضان فى النهر باعتدال يرجع رغد الحياة لمصر وترجع للمصرى قدراته العظيمة التى وهبها الله له، ويستعيد حضارته وإبداعاته. ومنذ عقود ومصر تعانى من فقر مائى " فقد كان النيل ينساب إلى مصر بدون أيه مشكلات أو أزمات " وكان أستقلال دول المنبع عن الدول الأستعمارية.. كلمة السر فى أزمة مياه النيل، والمحرك الأساسى لرفض هذه الدول الاعتراف بحصتى مصر والسودان من مياه النيل، فقد أعلنت كل من أثيوبيا وأوغندا وكينيا وتنزانيا – عقب أستقلالها – عدم أعترافهم بالاتفاقيات المنظمة لتقاسم مياه النيل، عللت هذه الدول رفضها لهذه الاتفاقيات التاريخية بأنه تم توقيعها بين مصر والسودان من ناحية وبين الدول الأوربية الأستعمارية من ناحية أخرى نيابة عن دول منابع النيل والتى كانت تقع تحت احتلال الدول الأستعمارية وبالتالى – بحسب زعمهم – كانت دول المنابع دولا غير مكتملة السيادة"[٢٣].

" والخلاصة أن القانون الدولى يقف فى صف مصر والسودان لأن الأتفاقيات التى وقعتها مصر مع الدول الأوروبية التى كانت تحتل دول المنابع لا تسقط بزوال الأستعمار البريطانى أو الايطالى أو البلجيكى عن هذه الدول... كما أن المنطق أيضا يساند مصر، فمصر هى الدولة الوحيدة من دول حوض النيل التى تعتمد على نهر النيل بصورة شبه كاملة، فى حين أن دول الحوض الأخرى تتعدد فيها مصادر المياه، وتتميز بوفرة مياهها"[٢٤].

---

[٢٢] - نبيل زكى – المرجع السابق.

[٢٣] - ولاء الشيخ – مياه النيل الأزمة و الحل – كتاب اليوم – دار الأخبار – العدد ٥٩٦ – ص ٥٥.

[٢٤] - ولاء الشيخ – المرجع السابق – ص ٦٩.

وكان تدخل إسرائيل باستراتيجيات معينة فى دول منابع النيل السبب فى تعنت تلك الدول من ناحية إعطاء مصر حصتها من موارد النهر، فقد أخذت تغزو أسواق تلك البلاد بمنتجاتها، إلى جانب تواجدها فى دول المنابع بدعم عسكرى وأمنى فمثلا قامت اسرائيل بتدريب القوات المسلحة الكنغولية وتسليحها.

كما قامت بالمشاركة فى عملية بناء الشرطة به، وقامت بتدريب أفراد الشرطة التنزانية على يد خبراء اسرائيليين، وكذلك قامت اسرائيل بتوقيع عدّة اتفاقيات عسكرية مع دول المنابع.. واتفاقيات للتعاون الأمنى والعسكرى ولم يكن غريبا أن يتهم تقرير أصدرته المخابرات الفرنسية عام ١٩٩٦، اسرائيل بأنها تتحمل الجانب الأكبر من تدهور الأوضاع فى مناطق منابع النيل، حيث أشار التقرير إلى أن اسرائيل قامت بتسليح جيش رواندا وبوروندى فضلا عن بيعها الأسلحة للمتمردين فى بعض دول منابع النيل لاستمرار الصراع بينهم وبين حكومات تلك الدول لتضمن استمرار حاجة حكومات تلك الدول لإسرائيل "[٢٥].

ذلك وأن هناك أيضا بعض الدول الخارجية التى تدخلت فى الدول الأفريقية بحيث أثرت على قرارات تلك الدول بالسلب تجاه مصر والسودان.

لذا فمن المنتظر من المسئولين فى مصر اتخاذ خطوات سريعة وجادة وقوية بإثبات حقوقها التاريخية فى حصتها من مياه النيل بالطرق القانونية فى المحاكم الدولية – والقانون فى صفنا – والأمل فى رجوع مصر لدورها الريادى والهام فى التعاون مع الدول الإفريقية – دول حوض النيل – تعاونا اقتصاديا وفنيا وثقافيا يحقق النفع والرخاء للجميع.

وحتى تستمر وترجع حضارة مصر لسابق عهدها وتألقها، تلك الحضارة التى علمت العالم أجمع وباعتراف الكثيرين " فها هو الأمريكى

(مارتن بارنال) فى كتابه (أثينا السوداء) يعلن أن الحضارة اليونانية كلها من أصل فرعونى.

ويؤكد الفيلسوف الإغريقى أفلاطون فى كتابه (القوانين) قائلا :

ما من علم لدينا إلا وقد أخذناه من مصر، ويقول د/ طه حسين أن اليونانيين فى عصورهم الراقية، كما كانوا فى عصورهم الأولى، يعتبرون أنهم تلاميذ المصريين فى الحضارة وفى فنونها الرفيعة بوجه خاص.

وثمة شهادة تاريخية على لسان نابليون بونابرت " لو كانت جيوشى من المصريين لأصبح العالم كله فى قبضة يدى، قل لى من يحكم مصر.. أقل لك من يحكم العالم ".

---

[٢٥] - ولاء الشيخ – المرجع السابق – ص ١٠٤ (بتلخيص).

ويقول المؤرخ وعالم الآثار الأمريكى (جيمس برستد) إن أى حضارة أو ثقافة هى استمرار أو امتداد لما قبلها. ماعدا حضارة مصر الفرعونية. ويضيف برستد : قبل مصر الفرعونية، كان الضمير فى غياهب الظلام، فقد ولد الضمير وقانون الأخلاق فى مصر،" إذن فإن ثقل القوة يكمن فى مصر بمخزونها الحضارى عبر
الآف السنين "[٢٦].

[٢٦] - نبيل زكى – جريدة الأخبار – المرجع السابق.

صورة رقم ١

صورة رقم ٢

صورة رقم ٣

صورة رقم ٤

صورة رقم ٥ أ

صورة رقم ٥ ب

صورة رقم ٦

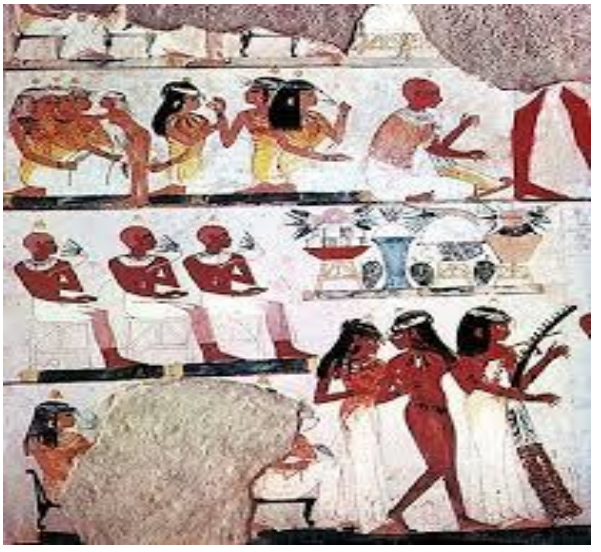

صورة رقم ٧ أ

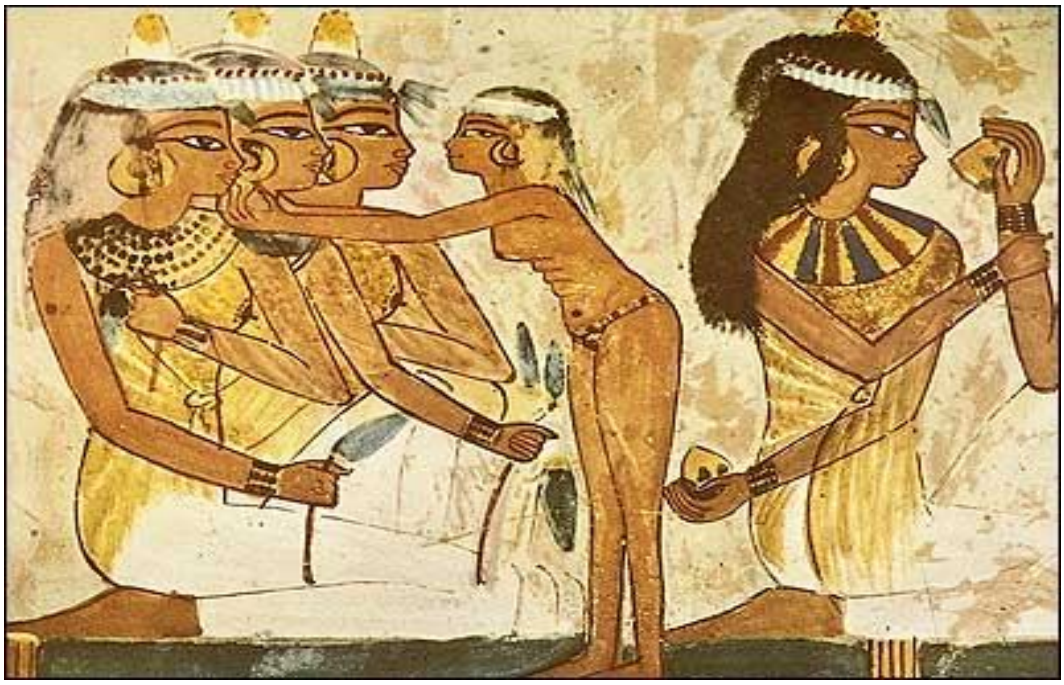

صورة رقم ٧ ب

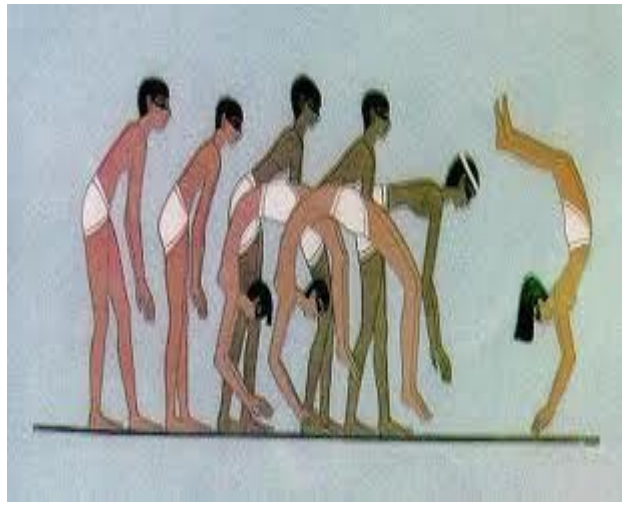

صورة رقم ٨ أ

صورة رقم ٨ ب

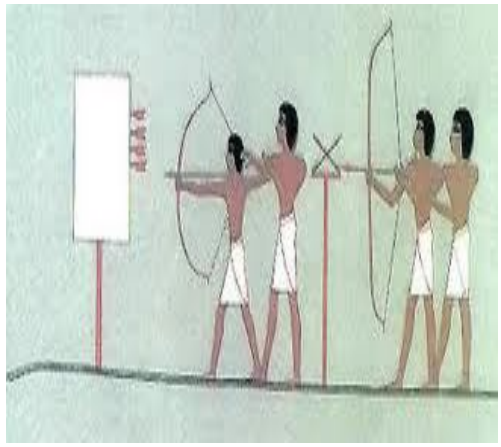

صورة رقم ٨ ج

صورة رقم ٨ د

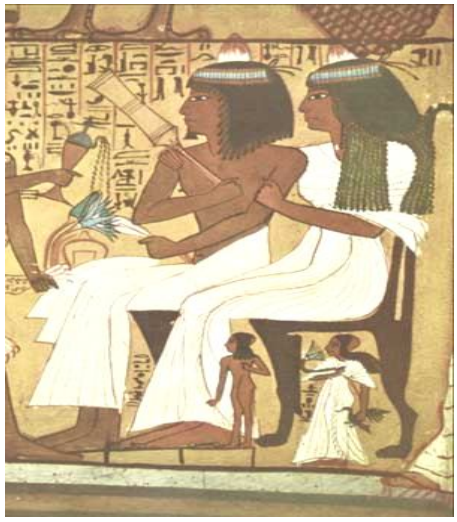

صورة رقم ٩ أ

صورة رقم ٩ ب

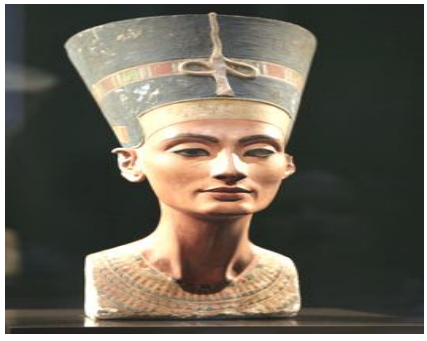

صورة رقم ١٠ أ

صورة رقم ١٠ ب